

مصائب المكاتب

ليس اعز على عالم من كتب واوراق كتبها هو او غيره ولذلك نجد المصنفين في كل عصر ومصر يختارون اجود الورق واثبت المداد واجمل الخطوط تخلد الجدم وحرصاً على بنات افكارهم او افكار من عاصروهم او تقدمهم . ولما كان لكل شيء في العالم عمر طبيعي يقضيه حيواناً كان او نباتاً او جماداً لم تخرج الكتب عن حد كونها عرضة للفناء وان طالت اعمارها اكثر من غيرها في عالم الكون والفساد يند ان المصيبة بها جليلة لانها ثمره عقول البشر وزبدة اقوالهم وافعالهم وافضل ما في المرء عقله ولا يتم له حفظ ثمراته في الغالب الا بكتاب .

حدثت الكتب في الاسلام في اواخر القرن الاول ولم يمض قرن او قرنان حتى عدت بالالوف وصار لها شأن عند القوم بعد ان كانوا امة امية لا يقرأون ولا يكتبون . قيل ان الكتب التي كتبها ابو عمرو بن العلاء المتوفى بعد التحسين ومائة عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له الى قريب السقف ثم انه تقرأ اي نفسك فاخرجها كلها . وفي رواية احرقها . فلما رجع الى علمه الاول لم يكن عنده الا ما حفظه بقلبه . ومعلوم ان اصحاب السلطان في الاسلام عنوا باقامة الخزائن وتسجيلها على المطالعة والمراجعة والتسج بتتايها خاصة الناس وعامتهم لندرة الكتب وعزة الظفر بها اذ ذاك وقد اصاب تلك الخزائن ما اصاب غيرها من مخربات العمران واقلها التجريق والتزريق والضباع والتفريق . ولذلك طالت لها الحسرة . وهلاك فرد لا يوازي هلاك افراد وان تعد الفرد احياناً بامة . وكذلك الحال في الكتب فان ذهاب مكتبة او مكاتب برمتها لا يشبه ذهاب كتاب او بضعة كتب واهم المآثم التي اقيمت على الكتب الاسلامية ثلاثة .

الاول يوم دخل هولاء كوسنة ٦٥٦ الى بغداد وقتل الخليفة العباسي وازال الخلافة جملة وخرب دار السلام فالقيت الكتب في دجلة حتى قيل ان لون مائه على غزارته بقي اياماً اسود مكماً بما تحلل فيه من مداد الاسفار التي ابتلعها وبالع المؤرخون فيما ذهب في تلك النكبة . ويكنى بان بعض تلك الكتب التي نبيت من بغداد والشام والجزيرة على زمن هؤلاء الترق قد انشأ بها نصير الدين الطوسي احد فلاسفة الاسلام خزانة عظيمة اتخذها ترواغة في القبة والرمد الذي انشأ هناك فيجمع فيها زيادة على اربعمائة الف مجلد . والمآثم الثاني يوم دخل الافرنج مدينة طرابلس الشام في الحروب الصليبية فاحرقوا مكتبتها بامر الكنت برنزام سنت جيل وكان قد دخل غرفة فيها نسخ كثيرة من القرآن فقضى باحراق المكتبة كلها وفيها على ما قيل ثلاثة ملايين مجلد . واصاب البلاد غير هذين الزويتين

ما أصابها من الخراب بأيدي الترواهل الصليب . والمأتم الثالث نكبة الاندلس ودهابيتها
الدهياء فقد رقت كتب المسلمين في أيدي أعدائهم وقد اعماه الجبل والتعصب فجعلوها
طعاماً للنار .

قال قوندي في تاريخه ان مسيحي اسبانيا لما استولوا على قرطبة حرقوا كل ما طالت
اليه ايديهم من مصنفات المسلمين وعددها مليون وخمسون الف مجلد جعلوها زينة وشعلة في
يوم واحد ثم رجعوا على سبعين مكتبة في الاندلس وانشؤا بتلفون كل ما عثروا عليه في
كل اقليم من مؤلفات العرب . وقال احد مؤرخيهم ربلس ان ما احرقه الاسبانيون من
كتب الاندلسيين بلغ الف الف وخمسة آلاف مجلد . وذكر بعض المؤرخين ان احد
جنائقتهم امر باحراق ثمانين الف مجلد في ساحات غرناطة عقب استيلائهم عليها وانهم
قبضوا على ثلاث سفن فاصدة مراکش نقل ما عثر على المسلمين ان يخلفوه وراءهم من اسفارهم
فالتقوها في قصر الاسكوريال ثم لعبت فيها النيران وبقيت منها بقية رتب فيرستها احد
مسيحي سورية وجعلوها في اليوم مكتبة ينشأها علماء الارض وكان بقي منها على عييد من
رتبها ١٨٥١ سفراً . وقد ادعى قوم ان المسلمين حرقوا كتب الام قبلهم في الفتح فعاملهم
الدهر بعلمهم بعد . فقالوا ان عمر بن الخطاب امر باحراق كتب الاوائل وانه امر عمرو بن
العاص باحراق مكتبة الاسكندرية وفيها قسم كبير من حكمة اليونان وغيرهم من الامم
الخالية وانهم حرقوا مكاتب فارس في خلال الفتح وان عبدالله بن طاهر قائد المأمون حرق
في خراسان سنة ٢١٣ هـ ما كان باقياً من مؤلفات المجوس الى غير ذلك مما يتذرعون به
من الحجج وهو مردود عند اهل التحييص وتقدة الاخبار .

ولو كان ما ادعوه ظل من الحقيقة لذكر قدماء المؤرخين من المسلمين ذلك ولو باشارة
طفيفة . ولماذا يا ترى لازي لهذه الدعوى ذكرنا بين ايدينا من كتب التاريخ كابن
جرير والمسعودي والبلاذري وغيرهم كما انا لا نجد لذلك اثراً في كتب سيرة العمرين وكان
على مؤلفيها لو كانت رويت هذه الاخبار لهم من طريق صحيح ونواترت في زمانهم ان
يعدوها في باب مناقب الخليفة الثاني ويوردوها بسلامة صدر على عادتهم في بعض اخبارهم .
بل كان على اصحاب الكتب السنة مثلاً ان ينفردوا لاحراق الكتب باباً لو كان صدر من
بعض الخلفاء الراشدين مثل هذا العمل . كل هذا لم يرد شيء منه في تضاعيف كتب
الثقات وانما هم الوضاعون وضعوا هذا الخبر كما وضعوا مثلاً مثله والمقصود بالامام فلتلقفه من
لا عيب له بوضع الاخبار على محك النقد من مؤرخي القرون الوسطى قضية مسلمة وراح
بعضهم يتذرعون به الى النيل من الائمة باحراقهم الكتب لجعلوا دون العقول والاخذ من

علوم الاوائل وكل ما نسب للمؤرخين المتأخرين منتول عن القفطي من اهل القرن السادس ولا بعد ان يكون تلقفه من كتب الوضاعين وتابعه عليه من بعده . يؤيد ذلك ما مني به المسلمون من الفرق الى شيع يضاد بعضها بعضاً وما ثبت في التاريخ من ان الحريق طراً على هذه المكتبة مرات قبل الاسلام ولما فُتحت الاسكندرية في الصدر الاول لم يكن في مكتبتها من الكتب ما يدعو الى مد يد الفاتح اليها بشيء من الاذى والحرق ولذا لم يذكر هذا الخبر احد من معاصري الفتح من المؤرخين سوا ما كانوا من الروم او غيرهم .

هذا ما وقع للكتب العربية من النكبات العامة في القرون الوسطى وقد وقع لها ما بعده نكبات اعظم وادهى نريد بها جهل القوم وزهدهم فيها ومفاداتهم بها وبيعها بثلثي بخس لكل طالب . وما زال الشيوخ من اهل هذا الجيل يحدثونا بما وقع لكتبنا في مصر والشام واقله السرقة والحرق الاختياري وبيعها من الدالين لينقلوها الى الاجانب .

حدثني ثقة ان دلال كتب في دمشق كان يغشى منازل اهل العمام ممن يعرفون بين القوم بالعلماء ويخلف الى متولي خزائن الكتب في المدارس فيبتاع منها ما طاب له من كتب القوم المخطوطة باثمان زهيدة اذ لم يكونوا يحرصون الا على كتب الفقه وكانوا ابيع من اخوة يوسف لكتب التاريخ لانها كذب بزعمهم والكذب لا ينبغي ان يوضع في قماطهم وخزائنهم وهناك فتون كثيرة تلحق فن التاريخ بالطبع وهي كتب الحكمة والادب . قال وقد ابتاع معظم هذه الكتب قنصل المانيا اذ ذاك بما يساوي ثمن ورقها ايض وبقي ستين يتلقطها من اطراف سورية حتى اجتمع له منها خزانة مهمة رحل بها الى بلاده فاخذتها حكومته منه وكاناته عليها والغالب ان معظم ما في مكتبة برلين العربية هو من بقايا الكتب التي كان بعدها اولئك المتعاملون اضاليل واباطيل والتخلص منها بدراهم معدودة خير وابقى . ومثل هذا وقع في كثير من بلاد الشرق العربي ولا سيما القاهرة فان ما تدورك امره وجمع في دار الكتب الخديوية هو غيض من فيض . وكذلك ما جمع في خزانة الكتب العمومية في دمشق وما بقي في بعض مدارس حلب وغيرها وما اظن الا ان حظ سائر البلاد الاسلامية كان كحظ هذين القطرين في كتبه لان الداء واحد وهو عموم الجهل .

اما مكاتب الاستانة وهي نحو اربعين مكتبة الآن ويبلغ ما فيها نحو مائة الف مجلد ففيها النفس الذي لا خطر له ولكنها مغلفة تأكلها الارضة ولا ينفع بها وكثيراً ما سطا عليها شياطين الانس من الغريين وابتاعوا بعضها من القوام عليها لقاء ربالات يرخصون بها لم ولا يزال معظمها في حكم العدم وتوشك اذا دامت كذلك ان تنفي مع ما في وترحل مع ما رحل .

الافتتاح مكتب مريخ وبرلين وستراسبورغ وليبسيك رلين وفيينا بودابست وكوفورد
ولندن وباريز والاسكوريال وبطرسبرج ونيويورك وشيكاغو وغيرها من المكاتب العامة
والخاصة فانها هي التي عرفت قدر ما احتقرناه وبواسطة زجانا يمينا كل كتاب انتقل اليهم
وينتفع به ولو بعد حين وآمالنا في انتشار مدينة الاسلام على يد اولئك الغربيين اكثر من
آمالنا من انتشارها على يدنا وان كنا نود مشاركة اولئك الغيورين في احياء مدينتنا
وصاحب الحاجة اولى بها .

نظام العمل

للدكتور موريس دي فلوري نشرت في « المجلة » الفرنسية

لا ارى انساناً يصف نفسه بأنه يقتلها في العمل خليقاً بان يكون حكمه معقولا لان
العمل في ذاته لا يقتل بل هو على العكس شرط من شروط الصحة وموازنة القوى . اذاع
في العهد الاخير احد الدعاة الى نزع الملكية (١) (Collectiviste) التحسين المخلصين
بان دور السعادة اتى وانه سيكون المرء بعد الآن ان يعمل كل يوم ساعة وثلاثاً يقوم بحاجاته
الخاصة ويوفي ما للمجتمع عليه من المطالب . وهو نظر في المستقبل لم احفل به بته اذ لم يقع
من قلبي موقفاً مقبولاً لعلني بان الانقطاع عن العمل اثنين وعشرين ساعة واربعين دقيقة
هو مما يؤدي بالانسانية الى مواقع الضعف الطبيعي الحزن والغفلة التي تغشى الابصار والبصائر
سيئاتها . هذا اذا لم اقل ان هذه البطالة والاغراق في عدم استعمال قوانا ربما يدفعنا الى
السقوط فيما سقط فيه اسلافنا الاول من الوحشية . على حين نرى العمل اليومي الطويل
ضرورياً تجديد قوانا وهو منظم غريب في جهادنا العصبي فعلينا والحالة هذه ان لا ننتقل
الى الافلال منه بدون تبصر .

لا يموت كبار العاملين شباباً كما يموت اسوأ الخاملين والامراض السارية لا تبق على
النساء المنقطعات عن العمل وتتناول الرجال المجددين في تعادي انهم . وكذلك الحال في
رجل له دخل يعيش في احدى الولايات قراء لا يعمل له الا ان يقرأ جريدة ويذهب ليتفرج

(١) هذا التعليم هو من التعاليم الاجتماعية الحديثة يقضي بالغاء امتلاك الشخصي ليعمل
بيد الحكومة والمجتمع .